البَابُ السَّادِس

الحِكَم

أ- تمهيد

في باب الحِكم من كتابنا «النثرُ في عصر النبوة والخلافة الراشدة» كنا قد انتجعْنا بعضَ المعجمات اللغوية، وبعض الكتب الفلسفية لكي نتهدَّى بما قال القدماء في تعريف الحكمة لغةً واصطلاحاً. قبسنا من لسان العرب والمعجم الفلسفي، وديوان الأدب، وجوهر الكنز، والتعريفات، والكليات أقوالاً وحدوداً، تختلف وتأتلف، وتفترق وتتفق فيما فهمت من الحكمة وأفهمت.

وبعد مقارنة الأقوال بعضِها ببعض، وإسقاطِ ما تكرَّر، وتوضيح ما غمض، والتأليف بين المختلفات وحذف الفضول من الحدود، أفضى بنا البحثُ إلى أن اللغويين فسَّروا الحكمة تفسيراً حسِّياً، فجعلوها علماً على البراعة في الصناعة، والخبرة المقرونة بالقدرة، والإحكام في الشدِّ والعَقْد، وإتقان العمل في كل مجال من مجالات الحياة.

وأما الفلاسفة فقد نقلوها من الدلالات الحسية إلى التصورات الذهنية المجردة، فأفرغوا فيها تصوّرهم للحياة والكون، وفسَّروها على وجهين؛ أولهما أن الحكمة معرفة الحقائق المجردة غير مقرونة بالتطبيق العملي. والثاني أنها التزام الحق والخير في القول والفعل، والمعتقد والسلوك، للرقي بالإنسان وبالحياة إلى مستوى رفيع. وخطر لنا في هذا الكتاب أن ننتجع مراتع أخرى لعلنا نقع على مرعى أخصب نخرج منه بحدٍّ أوفى، أو تعريف أدق مما سبق، فنضيفه إلى ما عرفنا.

ب- تقسيمات وتعريفات

عبد الملك بن محمد الثعالبي [ت: ٤٢٩هـ] عرَّف الحكمة فقال: «الحكمة نوع من العلم، يمنع ركوب الباطل. وقيل: خروجُ نفس الإنسان إلى كمالها الممكن لها، في حدّي العلم والعمل، فحينئذٍ ينال الخُلُقَ الذي يسمى العدالة.

وقال ابن قتيبة: هي العلم والعمل» واستعرض دلالات الحكمة في آي الذكر الحكيم فوجدها ستّاً:

- أولها النبوة: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥١].
- والثاني القرآن: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥].
- والثالث علوم القرآن: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٩].
- ورابعها السنة: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥١].
- والخامس الموعظة: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥٤/ ٥].
- والسادس الفهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٩].

ومجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي [ت: ٨١٧هـ] نحا نحو الثعالبي فعرَّف الحكمة تعريفاً عاماً جامعاً، ثم ذكر معانيها في القرآن الكريم. أمَّا التعريفُ فقوله[1]: «الحكمةُ العدلُ والعلمُ والحلمُ والنبوة والقرآن والإنجيل وطاعة الله والفقه في الدين، والعمل به، أو الخشية أو الفهم أو الورع أو العقل أو الإصابة في القول والفعل، والتفكُّر في أمر الله واتّباعُه». وهذا التعريف ينطوي على بضع عشرة دلالة، ورد بعضها في القرآن. ثم انتقل إلى معاني الحكمة في القرآن فذكرها، فإذا هي: «النبوة والرسالة، والقرآن والتفسير والتأويل، وإصابة القول فيه. وفهم الدقائق، والفقه في الدين، والوعظ والتذكير، وآيات القرآن وأوامره ونواهيه. وحجة العقل على وفق أحكام الشريعة» ثم قال: «الحكم أعمُّ من الحكمة. فكلُّ حكمة حكم، وليس كل حكم حكمة».

(١) بصائر ذوي التمييز ٢/ ٤٨٧.

ومحمد علي بن علي التهانوي [ت:١١٥٨هـ] عرَّف الحكمة وقسَّمها، فقال[١]: «هي إتقانُ الفعل والقول وأحكامُهما». «وهي أقسام: الحكمة العملية، والحكمة الخلقية، والحكمة المنزلية، والحكمة السياسية والمدنية، والحكمة النظرية».

وصديق بن حسن القنّوجي [ت: ١٣٠٧هـ] عرَّف وقسّم، فقال[٢]: «إنهم بعدما عرفوا الحكمة بأنها علم بأحوال أعيان الموجودات على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية قالوا: تلك الأعيان. أمَّا الأفعال والأعمال التي وجودُها بقدرتنا واختيارنا أولاً: فالعلم بأحوال الأول من حيث يؤدي إلى صلاح المعاش والمعاد يسمّى حكمة عملية، والعلم بأحوال الثاني يسمّى حكمة نظرية».

بعد النظر فيما أورد هؤلاء العلماءُ من تقسيمات وتعريفات، ومقارنة بعضها ببعض يستطيع القارئ أن يخرج منها بخلاصة ذات عناصر ثلاثة:

أولها أن للحكمة في القرآن الكريم دلالات كاد العلماء يجمعون على فهمها وإفهامها، على خلاف يسير في الإجمال والتفصيل.

وثانيها أنَّ لها وجهين: وجهاً نظرياً، يدلُّ على عمق الأفكار وشرفها، ووجهاً عملياً، يدلُّ على رقي السلوك وسموه إلى الكمال.

وثالثها أنَّ ما أضافه المتأخرون إلى المتقدّمين من تعريفات وتفريعات لا يعيننا فيما ندرسُ من حكم النثر العربي في العصر الأموي، لأنه إلى الفلسفة والمنطق أقربُ منه إلى الأدب. ونحن لم نذكره لنأخذَ به، بل لنبيِّن أن الألفاظ- ومنها الحكمةُ- كائناتٌ حيةٌ، يصيبُ دلالاتها من التطور ما يصيبُ كلَّ الأحياء، سواء بسواء.

جـ- أغراض الحكم ومعانيها

ذكرنا قبلَ أسطر أن للحكمة وجهين: وجهاً نظرياً يتَّصل بشرف المعاني وعمق الأفكار، ووجهاً عملياً، موصول المَرْمَى برقيّ السلوك الإنساني وسعيه نحو الكمال. وهذان الوجهان وسَّعا إطار الحكمة، وجعلاه قادراً على أن

(١) كشاف اصطلاحات الفنون/ ٧٠١.

(٢) أبجد العلوم١/ ٦٠.

يستوعب أوجه النشاط البشري كله، ما اتَّصل منه بالتفكُّر والتدبُّر في حياة الإنسان ومصيره، وما رمى إلى تقويم الأخلاق والسمو بالقول والفعل، كإطراء الفضائل، والإزراء بالرذائل.

وحينما يتّسعُ نطاقُ الحكمة هذا الاتساعَ فإنها تتناول الحياة الدنيا بالتحليل والتوجيه، والبشر بالتصوير والتطوير، والرجالَ بالمدح والقدح، وعلاقةَ الأبناء بالآباء برّاً وعقوقاً، وسلوك النساء عفَّةً وفسوقاً، وأوضاع المجتمع صلاحاً وفساداً، وأحوالَ الرعاة والرعية قيادةً وانقياداً. فإذا ضيَّقت الحكمة نطاقها غاصتْ في قلب الإنسان الفرد لتقفَ على حقيقة الإيمان، وفي عقله لتميز علمه من جهله، وفي طباعه لتحثَّ على التَّحلي بالمناقب وتنفّر من المثالب، وفي لسانه لتسخر من عيّه، وتعجب ببيانه، فلا تخفى عليها خافية مما فطر عليه، ولا يفوتُها سرٌّ ممَّا يحاولُ إضماره.

وباختصار أَبلغَ نقول: إن الحكم في العصر الأموي أشعةٌ متوهِّجة غمرت الحياة الاجتماعية فأضاءتها، وتغلغلتْ في نفس الإنسان الفرد فدرسته وغايتُها في الحالتين التوجيهُ والترقية. فما أبرزُ أغراضها ومعانيها؟

قبلَ أن نجيبَ عن السؤال بالحديث عن أغراض الحكم يحسنُ بنا أن نشير إلى أن تمييز الحكم من المواعظ أشقُّ من فصل الرقائق عن المواعظ، لإفضاء هذه الأجناس الأدبية بعضها إلى بعض، والمقياس الذي احتكمنا إليه ذو معيارين؛ فكريٍّ وفنيٍّ: أمَّا المعيارُ الفكري ففحواه أن ما كان من كلام الأدباء إلى العموم أقرب سلكناه في سلك الحِكم، وأما المعيار الفني فجوهرُه أنَّ ما طغى في أسلوبه الخبرُ على الإنشاء، والمنطقُ على العاطفة انتزعناه من المواعظ، وألحقناه بالحِكم. وهذا الفصلُ يبقى نسبيّاً لا دقيقاً، فقد تأخذُ علينا- وأنت على حقٍّ- أننا لم نُصِبْ فيما زعمنا وقسمنا، وأن كثيراً ممَّا سيرد بعدُ يمكنُ إلحاقهُ بالوعظ.

١- الحياة الدنيا

لم تُجمع الحِكمُ المتحدرة إلينا عن العصر الأموي على اتجاه واحد فيما رأت من آراء، تحدّد مواقف مَنْ رأوها، بل تعدَّدت الآراء واختلفت المواقفُ. ومع هذا التعدُّد والاختلاف يمكن تصنيفُ الآراء والمواقف في تيارين:

التيارُ الأول- وإليه تنتمي القلَّة- نظر إلى الدنيا بالعين المتفائلة المُقْبلة على زينة الحياة ومُبهجاتها.

والتيار الثاني- وإليه تنتمي الكثرة - نظر إلى الدنيا بالعين المتشائمة المعرضة عن مُبهجاتها إلى مزعجاتها. وتعليل ذلك عندنا أن هيبة الدين غلبتْ زينة الدنيا، على الرغم ممَّا حاول الأمويون نشره من المتارف والمباذل، لأن ما نشروه من الغناء، وما بنوه من القصور، وما شجعوا عليه من اللهو لم يُنْس الناسَ ما فعلوه في معركة الحرَّة، وحصار مكة، وقتل الحسين ﷺ، ولذلك اسودَّت صور الحياة واربدَّتْ في أعين الكثرة الكاثرة من الأدباء، فجاءت حكمهم مغموسة في الحزن واليأس.

الحارث بن خالد المخزومي [ت:نحو٨٠هـ]- وهو شاعرٌ غزلٌ لا يصلح لإمارة ولا لإدارة- تولَّى حكم مكة ليزيد بن معاوية، فَلَها وعبث كما لها ابن أبي ربيعة وعبث، وزعم أن الغناء معيارُ الذكاء، فمن لم يهزَّه الطربُ لم يدرك من حقيقة الدنيا شيئاً. «إنما الدنيا زينة، فأزينُ الزينةِ ما فرَّح النفسَ، ولقد فهم قدرَ الدنيا على حقيقته مَنْ فهم قَدْرَ الغناء»[(١)].

وهذه الحكمة، على سفاهتها، تمثل ما أُثِرَ عن يزيد، وهو أنه- والقولُ للسيوطي- «أسرف في المعاصي». فلما آلت الخلافة إلى عبد الملك أبعد الحارث المخزومي، وقال قولةً يسفه بها حكمته، ويردُّ إلى الخلافة الأموية هيبتها، قال عبد الملك: «قبَّح الله الغناءَ، ما أوضعَه للمروءة، وأجرحَه للعرض، وأهدمَه للشرف، وأذهبَه للبهاء».

أمَّا الحكماء البلغاء الذين يوثَقُ بدينهم، ويُؤخَذ بحكمهم فقد أوشكوا يُجْمعون على تحقير الدنيا والتزهيد في زينتها. قال الحسنُ بن يسارالبصري [ت: ١١٠هـ]: «من زهد في الدنيا مَلَكَها، ومن رغب فيها عَبَدها»[(٢)]. وذهب مسروق بن الأجدع [ت: ١٢٦هـ]-وكان من ثقات التابعين وعلمائهم بالفتيا- إلى أن أهل الدنيا جشعون لا يشبعون، ومُجرمون لا يرحمون، يستبيحون الحرامَ، ويقطِّعون الأرحام، فقال: «ألا أريكم الدنيا؟ هذه الدنيا أكلوها

(١) الأغاني ٣/ ٣٢٧.
(٢) المختار من نثر الدرر ٣/ ٢٧٤.

فأفنَوها، لبسوها فأبلَوْها، ركبوها فأنضوها[١]. سفكوا فيها دماءهم، واستحلّوا فيها محارمهم، وقطَّعوا فيها أرحامَهم»[٢].

وربما كان محمد بن كعب القرظي [ت: ١١٧هـ] - وكان ثقة صالحاً قدم على عمر بن عبد العزيز- أوضحَ ذماً للدنيا وطلابها، وأشدَّ شتماً لها ولعشاقها، إذْ قال[٣]: «الدنيا دارُ فناء، ومنزلُ قلعة[٤]، رغبتْ عنها السعداءُ، وانتزعت من أيدي الأشقياء. فأشقى الناسِ بها أرغبُ الناسِ فيها، وأزهدُ الناس فيها أسعدُ الناس بها. هي المُغْوية لمن أطاعها، والمهلكة لمن اتَّبعها، الخائنةُ لمن انقاد لها. علمُها جهلٌ، وغناها فقر، وزيادتُها نقصان، وأيامُها دول».

وبين الفريق المسرف في التبذُّل والتهتك، والفريق الموغل في التبتُّل والتنسُّك يتراءى لك بين حينٍ وحينٍ حكماء معتدلون، قادتهم التجارب إلى حِكم تعطي الدنيا حقها، ولا تبخس الدينَ حقَّه، ومنهم بلال بن أبي بردة [ت نحو: ١٢٦هـ] كان أمير البصرة وقاضيها، وأديبها وخطيبها، جمع الرواية إلى الدراية، والحكمة إلى التوسط، فرأى أن للسعادة في الدنيا ثلاثة نفر: امرأة حسناء صالحة، وخادماً أميناً طيّعاً، وصديقاً ودوداً مخلصاً، فقال[٥]: «رأيتُ عيشَ الدنيا في ثلاثةٍ: امرأة تسرُّك إذا نظرتَ إليها، وتحفظُ غيبك إذا غبتَ عنها، ومملوكٍ لا تهتمُّ بشيء معه، قد كفاك جميعَ ما ينوبُك، فهو يعملُ على ما تهوى، كأنه قد علمَ ما في نفسك. وصديقٍ وضع مؤنةَ الحفظِ عنك فيما بينك وبينه، فهو لا يتحفَّظُ في صداقتك ما يرصد به عداوتك، يُخْبرك بما في نفسه. وتخبره بما في نفسك».

٢- النَّاس أجناس

فيما وقَفَ الحكماءُ من حكمهم على التدبُّر في أخلاق البشر وسلوكهم محوران:

---

(١) أهزلوها.
(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢٤/ ٢٥٠.
(٣) المصدر السابق ٢٣/ ١٨٢.
(٤) تحول وارتحال.
(٥) مختصر تاريخ دمشق٥/ ٢٧١.

أحدهما يصنِّفُ البشرَ وفْقَ مواهبهم الفطرية، وخبراتهم المكتسبة، فإذا هم أصنافٌ وطبقات.

والثاني يغوصُ في النفوس ليكشفَ عمَّا وراء الوجوه المشرقة والألسنة المتودِّدة من مُخْزيات، لو افْتُضِحت لأصبح الموتُ إلى أهل الآخرة أحبَّ من أن يعايشوا أهلَ الدنيا. والمحوران، على الرغم ممّا قد يلتمعُ في تضاعيفهما من ومضات بوارق، يغلِّبان الشرَّ على الخير، والشؤمَ على الفأل، وسوءَ النية على حسن المظهر، وفساد الطوية على ادِّعاء الأدب، وعلى المجاملة بالقول المنمَّق.

سأل معاويةُ بن أبي سفيان الأحنفَ بن قيس [ت: ٧٢هـ] أن يصفَ له الناسَ، وكان الأحنفُ سيد تميم، ومضربَ المثل في الحلم، وأحدَ العظماء الدهاة، فمضى يصفُ ويصنِّف منتقلاً من رؤوس الطبقات إلى أقدامها: فرؤوس البشر الخلفاء، ومناكبهم الولاة، وأردافهم أغبياءُ الأغنياء، والأذنابُ الشعراء المتزلّفون، والغوغاءُ هي الأخفاف والأظلاف. قال الأحنف[١]: «رؤوس رفعهم الحظُّ، وأكتافٌ عظَّمهم التدبيرُ، وأعجازٌ شهرهم المال، وأذنابٌ أَلحقهم الأدب، ثم الناسُ بعدهم أشباهُ البهائم إن جاعوا ساموا[٢]، وإن شبعوا ناموا».

وإلى مثل هذا التصنيف ذهبَ الخطيبُ الأديبُ صعصعةُ بن صوحان [ت:٥٦هـ] إذْ قسَّم البشر تقسيماً طبقيّاً، يذكِّر القارئَ تقسيمَ أفلاطون في مدينته الفاضلة، فأعلاهم الأنبياءُ والأتقياءُ، يليهم الرؤساءُ، فالفقهاءُ، ثم يأتي القادة والجندُ، فالمَهَرةُ من الصُّناع والزُّراع، فالدهماءُ الكثيرة العدد، القليلةُ النفع.

قال صعصعةُ[٣]: «خلقَ الله الناس أطواراً، فطائفة للعبادة، وطائفة للسياسة، وطائفةٌ للفقه والسنة، وطائفةٌ للبأس والنجدة، وطائفةٌ للصنائع والحرف، وآخرون بين ذلك، يكدِّرون الماءَ، ويُغلون السعر».

---

(١) الحكمة الخالدة/ ١٥.

(٢) تجشموا المشقة.

(٣) البصائر والذخائر ١/ ٤٥، وفي الحكمة الخالدة/ ١٥٠: «فارس يذب عن البيضة، وزارع يسعى في العمارة، وعالم يشتغل في الديانة ورجرجة بين ذلك تكدر الماء وتغلي السعر» يذب عن البيضة: يدافع عن القوم أو جماعة المسلمين، رجرجة: أرذال الناس ورعاعهم.

وربَّما كانت حكم المحور الثاني أدقَّ تفكيراً، وأعمق تحليلاً من حكم المحور الأول، لأنَّها تضعُ الناس على محكِّ النقد، وتسلِّط عليهم أشعة كاشفة، تميزُ الكريمَ من اللئيم، والمنصفَ من المُجْحف، وعبادَ الرحمن من عبيد المال، ومَنْ دينهم ورعٌ وإخلاص ممَّن دينهم لغوٌ وادِّعاء.

قال الغضبان بن القَبَعْثَرَى -وهو أحدُ العلماء البلغاء في زمن الحجَّاج-[١]: «أكرمُ الناس أَعطاهم للمئين، وأطعمُهم للسمين. وألأمُ الناس المُعْطي على الهوان، المعينُ على الإخوان، البذولُ للأَيْمان، المنَّان على الإحْسَان».

وعن هذه القوس نزعَ الإمامُ جعفرُ بن محمد الصادق، فصوَّر خَلْقَ الأبرار وخُلُقَهم في اليُسر والعسر، وفي الرضى والسخط، والقوة والضعف، فأتى بدررٍ لوامع تكشفُ الأستار عن الأسرار، فقال[٢]:

«خيرُ الناس أرحبُهم ذراعاً[٣] عند الضيق، وأعدلهم حلماً عند الغضب، وأبسطُهم وجهاً عند المَسْأَلة، وأرحمُهم قلباً إذا سُلِّط، وأكثرهم صَفْحاً إذا قَدَرَ».

وبمثل هذا الإيجاز المحكم، والتعبير الدقيق أصاب عبدُ الملك بن مروان وأجاد، إذْ قال[٤]:

«أفضلُ الناس مَنْ عفا عن قدرة، وتواضع عن رِفعة، وأنصف عن قوة».

ولعلَّ أعمق ما قيل من حكم، تحلِّل النفوس، وتفضحُ ما يصطرع فيها من نقائض، ثم ينتصرُ فيها الباطل على الحق، فيصرفُ الناسَ بالدنيا عن الدين، وبالمنافع عن المبادئ كلمةٌ قالَها الحسينُ بن علي ﷺ. وعمقُها ناجمٌ عن تجارب، تمرَّسَ بها أهلُ البيت في صراعهم مع بني أمية. وهذه التجارب أقنَعتْ الحسين بأن أكثر الناس يؤمنون بالدين شعاراً وأذكاراً، ولا يؤمنون به مكابدةً ومجاهدةً، فقال[٥]: «الناسُ عبيد الأموال، والدينُ لَغْوٌ على ألسنتهم، يحوطونه ما درَّتْ به معايشُهُم، فإذا مُحِّصوا بالابتلاء قلَّ الديَّانون».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق٢٠/ ٢٠١.
(٢) غرر الخصائص الواضحة/ ١٧.
(٣) واسع القوة.
(٤) الإعجاز والإيجاز/ ٦٨.
(٥) الصناعتين/ ١٧.

٣- الرجال والنساء

انشعبتْ حِكَمُ الأدباء الأمويين، وهم يتدبَّرون أحوالَ الرجل والمرأة شعبتين: شعبةً تبرز ما بينهما من اختلاف، حتى كأنهما ضِدَّان متنافران، لا يلتقيان إلَّا لإنجاب الولد. وشعبةً تنوِّه بما بينهما من ائتلاف، فتجعل النساءَ شقائق الرجال، وتكشفُ عمَّا في تكامل الجنسين من استمرار الحياة وعمارة الأرض. وللشعبتين كلتيهما وجوهٌ من الحق والشطط، والإنصاف والإجحاف.

أمَّا الذين ألحوا على تضخيم الفروق فقد ذهبوا إلى أن الرجل عقلٌ، والمرأة جسد، ولهذا زعموا أن أَجْوَدَ الشطرين من عمر الرجل كهولتُه، لأنه متى اكتهلَ اكتملَ، فهدأت نزواتُه، وانطفأتْ رغابه، واتَّسع صدره للحلم، وفكرُه للعلم، وبارحه عبثُ الصبا، وطيشُ الشباب. قال رجل لزياد ابن أبيه[١]:

«إن خيرَ نصفي الرجل آخرهما: يذهبُ جهلُه، ويثوبُ حلمه، ويجتمعُ رأيه».

وربَّما كان وراء هذه الحكمة تجربةٌ مُرَّة، لأن قائلها لم يقلها إلّا بعدما خاصمته زوجتُه، فشكاها إلى زياد، وشفع الشكاة بحكمة أخرى، تعكسُ طرفي المعادلة، إذْ تزعم أن كهولة المرأة شرٌّ من شبابها، لأنَّها متى اكتهلت ذبلتْ، ومتى ذبلتْ رحل عنها الجمالُ، ولم يحلَّ محلَّه الكمالُ، فتغدو صخَّابة عيَّابة، تشغب وتُقْذع، ولا تُنجب ولا تُرْضع. قال الرجل[٢]:

«إن شرَّ نصفي المرأة آخرهما: يسوء خلقُها، ويحدُّ لسانها، وتعقمُ رحمُها».

وأسوأُ ما في هذا الضرب من الحكم التي تصنف البشر كافةً وفق تجارب خاصَّة ارتجالُها الأحكامَ بلا رويَّة، وحينئذٍ تحمِّلُ أوزارَ مَنْ جرَّبت ظهورَ من لم تجرِّب، كأن يزعمَ عبدُ الله بن الحشرج [ت: نحو٩٠هـ] وهو من سادات قيس وأجوادها أنَّ المرأة وُهبت المتعة، وحُرمت العقل، فيقول[٣]:

---

(١) عيون الأخبار٤/ ٤٣.

(٢) عيون الاخبار٤/ ٤٣.

(٣) الأغاني١٢/ ١٣.

«إن المرأة لم تُخْلَق للمشورة، وإنَّما خُلقت وثاراً[١] للباءة، والله إن الرشد واليُمْن لفي خلافِ المرأة...إيَّاك واستماع كلام النساء والأخذَ به، فإنَّك إنْ أخذتَ به ندمتَ».

وأمَّا الحِكمُ المنصفة فإنَّها لن تخصَّ أحد الجنسين بالخير، ولم تَرْمِ الآخر بالشرِّ، وإنَّما جعلت الخيرَ والشرَّ قسمةً بين الجنسين. فالحسنُ البصريُّ رأى أن الرجال ثلاثةُ أضرب، ما ساءَ منها غير ضرب واحد، فقال[٢]:

«الرجال ثلاثة: فرجلٌ كالغذاء، لا يستغنى عنه، ورجلٌ كالدواء، لا يُحتاج إليه إلا حيناً بعد حين، ورجل كالداء، لا يُحتاج إليه أبداً».

بمثل هذه العين المنصفة نظرت هند بنت المهلَّب بن أبي صفرة إلى النساء، فأعرضت عن الحمقاء التي تتسربل بزينة تجمِّل ظاهرها، وجوهرها قبيح، وأقبلتْ على العاقلة التي تُكمِّل جمالَ الخِلقة بحسن الخلق، فقالت[٣]:

«النساءُ ما تحلَّينَ بحلية أحسنَ عليهن من لُبٍّ ظاهر، تحته أدبٌ كامل».

ولَمَّا كانت الحكمة الإلهية تقضي بأن يلتقي الجنسان لإنجاب الولد، فقد اقتضت الحكمةُ البشرية بأن يختار الرجلُ لأولاده خير الأمهات، وخالدُ بن صفوان [ت: ١٣٣هـ] مع أنه كان عازفاً عن الزواج، رأى فيه رأيه، فذهب إلى أن خير النساء المرأة الشريفة العفيفة، الحصانُ الرزان، فقال[٤]:

«من تزوَّج امرأةً فليتزوجها عزيزةً في قومها، ذليلةً في نفسها، أدَّبها الغِنى، وأذلَّها الفقر، حصانٌ من جارها، مُتَحنِّنةٌ على زوجها». من نظر إلى الزواج بعين الغريزة رآه قضاءَ شهوة، ومن نظر إليه بعين العقل وجده بناءَ أسرة، وبهذه العين نظر إليه الأحنفُ بن قيس، فلم ير المرأة مخطوبة تتودَّد، بل رآها أمَّاً تُنجب، وحرثاً يثمر، فحمَّلها تبعةَ الحمل والوضع، وحمَّل الرجل تبعةَ التربية والرعاية، ونصح له بتنشئة الأبناء على الحبِّ والبذل ليقابلوا الحبَّ بالإكبار، والبذلَ بالبر، فقال - وهو يتحدث عن الخلف الصالح في مجلس معاوية-:

---

(١) فُراشاً وطيئاً.

(٢) العقد الفريد٢/ ٢٩٣.

(٣) مختصر تاريخ دمشق٢٧/ ١٩٥.

(٤) المصدر السابق٧/ ٣٦٢.

«هم عمادُ ظهورنا، وثمرُ قلوبنا، وقرَّةُ أعيننا، بهم نصولُ على أعدائنا، وهم الخلفُ منا لمن بعدَنا، فكنْ لهم أرضاً ذليلة، وسماءً ظليلة، إن سألوك فأَعطهم، وإن استعتبوك فأَعتبهم، لا تمنعْهم رِفْدَك، فيملّوا قُربَك، ويكرهوا حياتَك، ويستبطئوا وفاتك»[١].

وإذا كان حلم الأحنف قد زيَّن له الإفراط في التودُّد إلى الولد، فإن الإمام زيدَ بن عليّ [قتل: ١٢٢هـ] -وكان أفقهَ أهلِ زمانه- اعتدلَ فعدلَ، وجعلَ مِعْيار التربية السليمة أن يحبّ الوالدُ الولدَ هَوْناً ما، وأن يكافئَ الولدُ الوالدَ بالطاعة والبرِّ، فقال[٢]:

«إن خيرَ الآباء مَنْ لم تَدْعُه مودَّتُه إلى الإفراط، وخير الأولاد منْ لم يَدْعُه تقصيرهُ إلى العقوق».

٤- الصداقة والأصدقاء

وسَّع الأدبُ العربي في العصر الأموي أفقَ العناية بالصداقة، وأوْلى العلاقة بين الأصدقاء قدراً وافراً من الحكم الناقدة،والنصح العميق، لكي ينفيَ عن هذه الرابطة الاجتماعية ما يعلق بها من أوشاب الجفاء. فاجتماع البشر فطرةٌ، والفطرةُ - مهما يساورْها الانحرافُ - تُشَذَّب ولا تُقْتلع، ومع انتقال المجتمع العربي من بداوةِ الجاهلية إلى حضارةِ الإسلام أخذتْ هذه الرابطة تتَّسع وتتعقَّد، وأكبَّ عليها حكماءُ الأدباء بالصقل والتوجيه.

رجاء بن حيوة [ت: ١١٢هـ] - وكان من العلماء الفصحاء وأصفياء عمر بن عبد العزيز - لم يجد بداً من الصداقة، لكنه نصح لمن يلتمسونها بالتسامُح والتصالُح، والتغاضي عن النقائص، والكفِّ عن التلاوُم، والرضى من الإخلاص ببعضِه أو جلِّهِ إذا تعذر الظفر به كلِّه. فقال[٣]:

«مَنْ لم يُؤاخِ من الإخوان إلَّا مَنْ لا عيبَ فيه، قلَّ صديقهُ. ومَنْ لم يرضَ من صديقه إلَّا بالإخلاص له، دام سخطُه. ومن عاتب إخوانه على كلّ ذنب كَثُر عدوُّه».

---

(١) أمالي القالي٢/ ٤١.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٩/ ١٥٤.

(٣) المصدر السابق ٨/ ٣١٣.

والأحنفُ بن قيس تهدَّى بحلمه إلى عناصر الصداقة الدائمة، التي تتحوَّل مع الأيَّام إلى حبٍّ صادق، وهي: إضمارُ الوفاء للأصدقاء، وحسنُ المعايشة والمعاملة، ومشاركتُهم حزنَهم إذا نزلت بهم نازلة، فقال[١]:

«ثلاثُ خصال تُجتلب بهن المحبةُ: الإنصافُ في المعاشرة، والمواساةُ في الشدَّة، والانطواءُ على الموَدَّة».

وسلمة بن دينار [ت: ١٤٠هـ]- وكان عالم المدينة وقاضيها-آثر الصداقة على القرابة، لكنه حذر القرناء من السأم والحسد فقال[٢]:

«ليس للملول صديق، ولا للحسود راحة. المودةُ لا تحتاج إلى القرابة، والقرابة تحتاج إلى المودة».

وخطا خالدُ بن صفوان بالصداقة خطوةً أخرى، بغية توثيقها وتعميقها، فحثَّ الصديق على أن يتألَّف صديقه بالمال، وأن يتّقي عدوَّه بالإنصاف، وأن يُخالِقَ الناس بخلق حسن، فقال[٣]:

«ابذل لصديقك مالَك، ولمعرفتك بِشْرَكَ وتحيتك، وللعامة رِفدَك[٤] وحسنَ محضرك، ولعدوِّك عدلَكَ، واضنَنْ بدينك وعِرضِك عن كلِّ أحد».

وعلى ابتياع الأصدقاء بالمال وإسداء العوارف وقَعَ المهلَّبُ بن أبي صفرة [ت: ٨٣هـ] فكان أصرحَ من خالد بن صفوان إذْ قال[٥]:

«عجبتُ لمن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحرارَ بمعروفه».

لكنه قيَّد هذا المسلك بقيد، لابدَّ من التزامه، وهو أن يقدِّر الصديقُ صديقه حقَّ قدره، فالضنُّ أهونُ من المَنِّ، والتحقيرُ ينسخ المعروف. قال المهلب:

«ثلاثةٌ لا يُسْتَخفُّ بهم: عاملُ السلطان، والعالمُ، والصديقُ. فإنه من استخفَّ بالسلطان أفسدَ دنياه. ومن استخفَّ بالعالم أفسد دينه، ومن استخفَّ بالصديق أفسد مُروءتَه».

---

(١) المصدر السابق ١١/ ١٤٦.
(٢) المصدر السابق ١٠/ ٧٤.
(٣) المصدر السابق ٧/ ٣٦٣.
(٤) عطاءك.
(٥) الإعجاز والإيجاز/ ٧٠.

وأضاف الحسن البصري قيداً ثانياً، وهو مجانبةُ الحَيفْ، لأن الإساءة تقابلُ بالإساءة:

«اصحب الناس بما شئتَ أن تصحبَهم، فإنهم سيصحبونك بمثله»[١].

وأيوب بن زيد المعروف بابن القرِّيَّة [ت: ٨٤هـ] ومضرب المثل في البلاغة والبيان نَصَح للأصدقاء باطِّراح المزاح، لأنه يُبْهج في البداية، ويُزْعج في النهاية، ويسرُّ قوماً بإسخاط قوم، ولا ينجم عنه إلا التباغُض:

«المزاح أوَّلُه فرح، وآخره تَرَح، والمزاح نقائضُ السفهاء، كالشعر نقائض الشعراء. والمزاحُ يوغرُ صدرَ الصديق، وينفِّر الرفيق»[٢].

٥- من آداب السلوك

هذَّب الإسلامُ من سلوك العرب ما هذَّب، فاستقاموا ما أقام بينهم نبيُّهم ﷺ. فلما قُبض وانقطع خبرُ السماء عن أهل الأرض، كان على حكماء الصحابة والتابعين وأهل الرأي أن يؤدِّبوا الناسَ بأدب النبوَّة. وأوْلَى الناسِ بهداية الناس ورثةُ النبيّ من أهل البيت، ومَنْ طالت حياته منهم فأدرك العصر الأمويّ، ومنهم محمد بن الحنفية [ت: ٨١هـ] الذي يُعَدُّ أعلمَ من الحسن والحسين، ويُعدَّان أفضلَ منه بأمهما الزهراء.

ورث ابن الحنفية من الفواجع ما حمله على إيثار المداراة والمصانعة، فقال[٣]:

«ليس بحكيم مَنْ لم يعاشر بالمعروف مَنْ لا يجدُ من معاشرته بُدًّا، حتى يجعلَ الله من أمره فَرَجاً».

ومنهم أبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين [ت: ١١٤هـ] الناسك العابد العالم بالتفسير، المؤدَّبُ بالأدب النبويّ. كان يرى أن على من يندبُ نفسه لنقد العيوب أن يبدأ بنفسه، فإن عجز عن التبرُّؤ من نقائصه فلا حقَّ له في انتقاص أحد:

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٨٤.
(٢) الحياة الأدبية في البصرة/ ٢٤٧.
(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ١١٧.

«كفى بالمرء أن يُبصر من الناس ما يَعْمى عليه من نفسه، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع التحوُّلَ عنه، وأن يؤذيَ جليسه بما لا يَعنيه»(١).

وربما كان حبرُ الأمة عبد الله بن عباس [ت: ٦٨هـ] أوسعَ الهاشميين معرفة، وأعمقهم علماً، وأدقَّهم حكمة، وأولاهم بتأديب من فاتته الصحبة، كان يرى أن الإحسان إلى الناس فضيلة، سواءٌ أتلقَّاه المتلقّي بالشكر أم بالكفر، لأن لؤم الآخذ لا يحرمُ المعطيَ شكرَ مَنْ بلغه خبرُه، وإن لم يُصب منه. قال ابنُ عباس(٢):

«لا يُزهِّدِنَّك في المعروف كفرُ من كفرَه، فإنه يشكرك عليه مَنْ لم تصطنعه إليه».

وإذا كانت فضيلةُ المعطي ألّا يمنَّ، فإن فضيلة الآخذِ أن يشكر. قال عثمان بن عروة بن الزبير(٣):

«الشكرُ وإن قلَّ جزاءٌ لكلِّ نائلٍ، وإن جلَّ».

والإمساك عن الإساءة قد يعدل المضيَّ في الإحسان على أن تكون التوبة من جنس الذنب، فمن أذنب سرًّا وتاب سرّاً أجزأته توبته، ومن جهرَ بالمعصية فلا بُدّ من أن يعلن التوبة ليمحو الجهر بالجهر، ويَجُبَّ الغيبة عن نفسه. قال ميمون بن مهران(٤):

«مَنْ أساء سرّاً، فليتبْ سرًّا، ومَنْ أساء علانية فليتب علانية، فإن الناس يعيِّرون، ولا يَغْفرون، والله يغفِرُ ولا يُعيِّر».

٦- المال

لم يُجمع العرب في الجاهلية والإسلام على إطراء فضيلة إجماعهم على إطراء الكرم، ولم يأنفوا من أن يوصَمُوا برذيلة أنفتَهَم من الوَصم بالبخل. فليس من المُسْتَغرب إذن أن يبلغنا عن عُقلاء العصر الأمويّ وحكمائه فيضٌ من حكم، تعظِّم الجود، وتحقِّر الشحَّ، ولا ترى في الثراء فضلاً ما لم ينفَقْ في وجوه الخير.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٣/ ٨٦.
(٢) الكامل في الأدب ١/ ١٧٩.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ١٦/ ١٠٨، والبيان والتبيين/ ٣٢٧.
(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ٧٥.

بيَّن محمد بن الحنفية فضل المال فقال: «أفضلُ المال ما أفاد ذخراً، وأورث ذكراً، وأوجب أجراً»[١]، وبهذا القول أرضى أهلَ الدنيا الراغبين في المدح والشهرة، وأهل الدين الراغبين في الثواب. غير أن عبد الملك بن مروان ارتقى بالفضل مرتبة أرقى، فزعم أن الكرم الصراح ما تمحَّض لوجه الخير، ولم يُتوسَّل به إلى الأجر، فقال[٢]:

«ثلاثة من أحسن شيء: جود لغير ثواب، ونصب لغير دنيا، وتواضع لغير ذلّ». وكلمةُ عبد الملك مثاليةٌ مفرطة في التجرُّد والإخلاص، وأقربُ منها إلى الواقع حكمةٌ ربط فيها خالد بن صفوان السخاءَ بالجزاء، فقال[٣]:

«ليس شيء أحسن من المعروف إلَّا ثوابه». وإذا كانت واقعية الإسلام قد ربطت الخير بالأجر، والأجر بالمشقة فقد خيل إلى أبي ذر الغفاري أن الفقر أفضل من الغنى، والمرض مقدم على الصحة، لإيثاره المشقة على الراحة، ووسطيةُ الإسلام لا تقرُّ أبا ذرّ على ما ذهب إليه، فقد أنكر الحسن بن علي رأي أبي ذرٍّ، وأقرَّ بقضاء الله وقدره.

قال الإمامُ الذهبي[٤]: «قال الحسن بن عليّ- رضي الله عنهما- وقد قيل له: إنَّ أبا ذرٍّ يقول: الفقرُ أحبُّ إليَّ من الغنى، والسقمُ أحبُّ إليَّ من الصحة. فقال: رحمَ الله أبا ذرٍّ. أمَّا أنا فأقولُ: مَن اتَّكل على حُسْن اختيار الله لم يتَمَنَّ شيئاً».

ولَمَّا كان المال نسغَ الحياة، فإن الحكمةَ الرزان أنطقت الحسنَ البصريَّ بما يُغْني الفقير، إذْ بغَّض إليه الإسراف ورغَّبه في الاقتصاد، لئلا يضطر إلى سؤال الأوغاد، فقال:

«مداراة الناس نصفُ العقل، والقصدُ في المعيشة نصف المؤونة»[٥].

ولم يغفل في الوقت نفسه عن تحقير البخلاء، والسخر ممَّن يكنز الذهب والفضة، فيشقى بجمعهما في الدنيا، وتكوى بهما جبهته وجنباه في الآخرة، فيتحوَّل عزُّها إلى ذلٍّ في الدارين، قال الحسن البصري:

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٣/ ٩٨.
(٢) المصدر السابق ١٥/ ٢٢٩.
(٣) المصدر السابق ٧/ ٣٦٢.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦٢.
(٥) عيون الأخبار ٣/ ٢٢.

«لم أر أشقى بماله من البخيل، لأنه في الدنيا مهتم بجمعه، وفي الآخرة محاسبٌ على منعه، غير آمن في الدنيا من همِّه، ولا ناج في الآخرة من إثمه. عيشهُ في الدنيا عيشُ الفقراء، وحسابُه في الآخرة حسابُ الأغنياء»(١).

وبالعين الواقعية نفسها نظر عياضُ بنُ عبد الله القرشي [ت: نحو١٠٠هـ] إلى الدَّيْن، فلم يَرَه سَعَةً بعد ضيق، بل رآه ضيقاً يخنق، وقيداً يُشَدّ، وهمّاً يربضُ، فحاذره، وحذَّر منه بقوله:

«إن الدَّيْن مجمعٌ لكلِّ همٍّ: همٍّ بالليل، وذلٍّ بالنهار، وراية الله في أرضه. فإذا أراد الله أن يُذِلَّ عبداً جعله طوقاً في عنقه»(٢).

٧- العقل والعاقل

تصدر الحكمةُ عن مصدرين: فطرةٍ موهوبة، وخبرة مكسوبة. أي عن عقلٍ وتجربة، ولهذا أَوْلى الحكماءُ العقلَ حَظاً وافراً من العناية، فأَجْملوا وفصَّلوا، وحلَّلوا وعلَّلوا، تحدّثوا حيناً عن العقل: جوهرِه ومظهرِه، وحيناً عن العاقل: رويته ورؤيته، ووضعوه حيث يجب أن يوضع. فمعاويةُ بن أبي سفيان- وهو رابع أربعة العرب الدهاة- ماز الذكاء الفطريَّ من الخبرة المكتسبة، وأقرَّ بأن التجربة تشحذُ الموهبة، وتضيف إلى العقل عقلاً آخر، فقال(٣):

«العقل عقلان: عقلُ تجارب، وعقل نحيزة(٤)».

وطاووس بن كيسان نصح للإنسان بالاحتكام إلى عقله لا إلى قلبه، لأن العقل قاضٍ منصفٌ، وحَكَمٌ عَدْل، يجنِّب صاحبه الخطلَ والزللَ، فمن تحلَّى به كانت حليته أبهى من العقد النظيم، وأحلى من الجوهر النفيس:

«ما قلادة نظمت من دُرٍّ وياقوت بأزينَ لصاحبها من العقل. ولو ناصح المرء عقلَه، لأراه ما يزينه ممَّا يشينُه. فالمغبون مَنْ أخطأ حظَّه من العقل»(٥).

---

(١) غرر الخصائص الواضحة/ ٢٨٦.
(٢) البيان والتبيين٢/ ٢٩٠.
(٣) مختصر تاريخ دمشق٢٥/ ٥٨.
(٤) طبيعة.
(٥) غرر الخصائص الواضحة/ ٨٦.

ورأى سلمةُ بن دينار أن احتكام المرء إلى عقله وحده، موطئٌ زلقٌ، لا يُؤمن فيه السير على بصيرة، وظاهَرَهُ فيما ذهب إليه ابنُ القرِّيَّة، فدعا إلى أن يستعين الذكاءُ بالذكاء، لئلا يُفضي الاغترار إلى العثار، فتكون حصافة مَنْ ازدهى بحصافته أسوأَ من بلاهة من يستشير الحصيف. قال سلمة[١]:

«من استغنى بعقله زَلَّ» وقال ابنُ القرِّيَّة[٢]: «آفة العقل العُجْب».

وسعيدُ بن جبير [ت:٩٥هـ] عالم الكوفة فصَّل القول في فضل العقل تفصيلاً، أَوْفى على الغاية في الإحاطة والعمق والدقة، إذْ وجد فيه قوَّةَ الضعيف، وثِقافَ الأعوج، ويسار المُعسِر، وهدايةَ الغويِّ. به يغتفرُ الناس ذنوبَ المذنب، وبُخل الشحيح، فيغدو شفيعَ من لا يجد شفاعة، وعذر من ركبه الوزر، فقال[٣]:

«لم تَرَ عينايَ أفضلَ من فضل عقْل، يتراءى به الرجل: إن انكسر جبره، وإن صُرع أنعشه، وإن ذلَّ أعزَّه، وإن اعوجَّ أقامه، وإن عثر أقاله، وإن افتقر أغناه، وإن عري كساه، وإن غوي أرشده، وإن خاف أمَّنه، وإن حزن أفرحه، وإن تكلم صَدَّقه، وإن أقام بين ظهراني قومٍ اغتبطوا به، وإن غاب عنهم أسِفوا عليه، وإن بسط يده قالوا: جوادٌ، وإن قبضها قالوا: مقتصدٌ، وإن أشار قالوا: عالمٌ، وإن صام قالوا: مجتهدٌ، وإن أفطر قالوا: معذور».

ولما كان اللسان ترجمانَ الجَنان، فإن القول مرآة العقل، ولهذا استدلَّ الحكماءُ على العقلاءِ بالكلام، فالعاقل عند الحسن البصريّ منْ أبطأ وتمهَّل في التفكير، لا من تجرأ وتعجَّل في الردّ:

«لسانُ العاقل وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكَّر، فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت»[٤].

والأناةُ تجنِّبُ العاقلَ اللغوَ السخيف، وتُنطقه بالقول الفصل، لأنه - والقولُ لابن القرِّيَّة - لا يتكلمُ إلّا عن رويَّة:

---

(١) مختصر تاريخ دمشق١٠/ ٧٤.
(٢) وفيات الأعيان ١/ ٢٥٣.
(٣) غرر الخصائص الواضحة/ ٨٥.
(٤) البيان والتبيين١/ ١٧٢.

«العاقلُ إن تكلم أجاد، وإن سمع وعى، وإن نطق نطق بالصواب»[١].

ومن سمات العاقل الحدسُ الصادقُ والحسُّ البصير، بهما يستطيع أن يرى الرأيَ قبل الحاجة إليه، ويتجنَّب الخطر قبل النزول به، كأنَّ بصره في بصيرته وسريرته، لابين عينيه. قال زياد ابن أبيه: «ليس العاقلُ الذي يحتالُ للأمر إذا وقع، ولكن العاقلَ الذي يحتالُ للأمر أَلَّا يقعَ فيه»[٢].

إنَّ ما أجمله الحسنُ البصريُّ وابنُ القريّة وزيادٌ من فضائل العاقل فصَّله عامرُ بن شراحيل الشعبيُّ [ت:١٠٣هـ] تفصيلاً مُسْهباً، يمكن ردُّه إلى فضيلة واحدة وهي اعتبار العاقل برذائل السفهاء. قال الشعبي[٣]:

«لا تقدموا على أمرٍ تخافون أن تقصِّروا دونه، فإن العاقل يحجزه عن مراتب المتقدّمين ما يرى من فضائح الأولين المقصرين. ولا تعِدوا أحداً عِدةً لا تستطيعون إنجازَها، فإن العاقل يحجزُه عن الكذب ما يرى من المذمَّة في الخُلْف. ولا تحدِّثوا بين الناس مَنْ تخافون تكذيبه، فإن العاقل يُلْزِمُهُ الصمتَ ما يرى من مذمَّة التكذيب. ولا تسألوا أحداً من الناس تخافون منعه، فإن العاقل يحجزه عمَّا ناله السائلون ما يرى من الدناءَةِ في الطمع».

٨- العلم والعالم

تنجم الحِكَم عن التجربة كما تنجم عن المعرفة، لكنَّ نجومَها عن التجربة قد يحوِّلها إلى أمثال قصيرة سائرة، يردِّدها العالمُ والجاهل كأمثال العرب في العصر الجاهلي، ونجومُها عن المعرفة قد يجعلها أدباً يصنعه الخاصَّة من العلماء، يتناقلونه، ويتناصحون به، ولا سيَّما ما اتَّصل منه بأخلاق العلماء. والقدرُ الأكبر الذي بلغنا عن العصر الأمويّ من حكم العلم يذهبُ هذا المذهبَ، ولايذهبُ مذهبَ الأمثال.

فعكرمةُ بن عبد الله البربريُّ [ت:١٠٥هـ]- وكان من أعلم الناس في التفسير- ربط العلم بالعالم، كأنه يوجب على مَنْ يحمل العلم أن يكون جديراً به، يعلِّمه كما تعلَّمه، ويُجلُّه عمَّن لا يقدِّره حقَّ قدره. قال عكرمة:

(١) مختصر تاريخ دمشق ٥/ ١٣٢.
(٢) المصدر السابق ٩/ ٨٣.
(٣) البصائر والذخائر ٥/ ١٦٨.

«إن للعلم ثمناً، فأعطوه ثمنه. قالوا: وما ثمنُه؟ قال: أن تضعوه عند مَنْ يحسن حفظه، ولا يضيعه»[١].

وزاد عروة بن الزبير [ت: ٩٣هـ]- وكان أحدَ الفقهاء السبعة في المدينة- هذه الحكمة توضيحاً بحكمة تكملها، وهي أن يُقَدَّ العلم على قدِّ المتعلِّم، لئلا يفهمه على غير وجهه، فينقلب من هدْي إلى غيّ. قال عروة[٢]:

«ما حدثت أحداً بشيء من العلم قطُّ، لا يبلغه عقله، إلّا كان ضلالة عليه».

أمَّا نَسَّابة العرب الذي لم يعرف مثله لساناً وعلماً وحفظاً، وهو دغفل بن حنظلة [ت: ٦٥هـ] فقد تحدث عن العلم فسفَّه أربع خلال: النسيان، والكذب، وَوضْعه عند من لا يستحقُّه، والنهم الذي يمتحن به طلابه الملهوجون، فقال[٣]:

«إن للعلم أربعةً: آفةً، ونكداً، وإضاعة، واستجاعة: فآفتُه النسيان، ونكدُه الكذب، وإضاعته وضعه في غير موضعه، واستجاعته أنك لا تشبع منه».

روى الجاحظ حكمة دغفل، ثم علّق عليها بقوله: «وإنما عاب الاستجاعةَ لسوء تدبير أكثر العلماء، ولخرق سياسة أكثر الرواة، لأن الرواة إذا شغلوا عقولهم بالازدياد والجمع عن تحفظ ما قد حصلوه. وتدبُّر ما دونوه كان ذلك الازدياد داعياً إلى النقصان، وذلك الربح سبباً للخسران».

٩- الإيمان والمؤمن

ذكرنا قبل أن طائفة من حكم البلغاء في العصر الأموي نجمت عن المعرفة الواسعة، لا عن التجربة الواقعية. ونذكر الآن أنَّ الإمعان في النظر، قد يُنطقهم بحكم ممعنة في التجريد، تقنع العقل، ولا تخالط القلب. لهذا حاول بعضهم أن يتغلب على التجريد بالتصوير الحسيّ، فوفق وأخفق. خُيِّل إلى وهب بن منبه أن الإيمان إنسان عريان فقير، فستر عريه بالورع، وجمَّل وجهه بالخفر، وأغناه بعد فقر بالفقه، وخُيِّل إليه كذلك أن المؤمن حاكم وحيد، فتغلَّب على وحدته بالعلم، واستوزر لدولته الحلم، وجيَّش له جيشاً من الصبر، واختلق له أباً من

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٩.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٤٣٧.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ٨/ ٢٠٥، والبيان والتبيين ١/ ٢٧٣.

العطف، وأخاً من اللطف، وجعل العقلَ إمامه، والعمل قوامَه، فقال[١]:

«الإيمان عُرْيان، لباسه التقوى، وزينتُه الحياء، ومالُه الفقه». وقال أيضاً[٢]: «العلم خليلُ المؤمن، والحلم وزيرهُ، والعقل دليله، والصبر أميرُ جنده، والرفق أبوه، واللين أخوه، والعمل قيِّمه».

إن قارئ هاتين الحكمتين يحسُّ أن صفاء الإيمان قد تكدَّر بهذه الصور، وأنَّ حرارته انطفأت أو بَرَدت، وأن الأسرة التي نُسِب إليها المؤمن تفتقر إلى حميَّة النسب وإلى التراحم بين ذوي القربى. وخيرٌ من تصوُّر ابن منبه وتصويره قولُ أبي حازم الأعرج[٣]:

«إنّ المؤمنَ إذا نظرَ اعتبر، وإذا سكت تفكَّر، وإذا تكلَّم ذكر، وإن أُعطي شكر، وإن مُنِع صبر».

وعن قوس أبي حازم نزع الحسنُ البصري، فلم يتكلَّف صوراً تُجمِّلُ صورة المؤمن، وتفتِّر وقدة الإيمان، وإنما أثار بحكمته العواطفَ التي تحرِّك وتثير، فنفخَ المؤمن والقارئَ على سواء بالخوف من الله، وبالإخلاص له في القول والعمل، فجاءت حكمته أدقَّ وأعمق، وأعلقَ بالقلب وألصق. قال الحسن البصري[٤]:

«المؤمن من علِم أن ما قاله الله كما قال، والمؤمنُ أحسنُ الناس عملاً، وأشدُّ الناس وجلاً. فلو أنفق جَبَلاً من مال ما أمِن دون أن يُعاينَ، لا يزدادُ صلاحاً وبرّاً إلَّا ازداد فَرَقاً».

وذهب محمد بن سيرين [ت: ١١٠هـ] -وكان إمام زمانه في علوم الدين- إلى أن المؤمن يحاسب نفسه كل لحظة ويحاكمها بعد كل هفوة، كأنه يردّد قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٤]. قال ابن سيرين:

«إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه يأمرُه وينهاه»[٥].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٦/ ٣٩٣.
(٢) المصدر السابق، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٩.
(٣) مختصر تاريخ دمشق١٠/ ٧٤.
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٨٦.
(٥) البداية والنهاية ٩/ ٢٧٥.

obeikandl.com

١٠- الجاهل والأحمق

يلتقي الجهل والحمقُ في جانب من جوانب الأخلاق والسلوك، ويفترقان في جانب: يلتقيان في فساد الرأي، وضيق الأفق، والعجز عن النظر في مصادر الأمور ومواردها، ودوافعها ومقاصِدها، وفي الضعف عند مقابلة المشكلات والإخفاق في دفع النوائب. ويفترقان في أن الجهل قد يعالَجُ، والحمق يَشْمُسُ على العلاج، فلا يفعل في دائه دواء- الجهلُ يُداوَى، لأنه نقصٌ في العلم، والنقصُ عَرَض لا جوهر، والحمقُ لا يداوَى لأنه فسادٌ في الطبع، والطبع مغروس في النفس، تغورُ جذورُه في الصدر، وتعتلقُ القلب، وتلابسُ الروح. فهو أدهى من الجهل وأنكى، وأخزى لصاحبه وأردى.

ولو استعرضتَ ما قيل في العصر الأموي من حكم تحلِّل الجاهل والأحمق لوجدتها تغلِّب ما يأتلفان فيه على ما يختلفان، وتوشك أن تضعهما في كفَّة واحدة، هي كفة السَّفاهة والبلاهة، والتبذّل والتعجل. فالغضبان بن القَبَعْثَرى أخذ على الجاهل الثرثرة باللسان، واللغو في الأيمان، والتكبُّر على الأقران، فقال[١]:

«الجاهلُ المهذارُ في كلامه، الضنينُ بسلامه، التائه على غلامه، المجتهدُ في أقْسامه، المتكلِّم في طعامه».

والحسن البصري أخذ عليه التعجُّل والارتجال، فقال[٢]:

«قلب الجاهل وراء لسانه، فإن همَّ بالكلام تكلَّم به له أو عليه».

وابن القرِّيَّة عاب الأحمق بما عيب به الجاهل من الطيش، وزاد عليه العجز عن التمييز بين الخير والشر، والنفع والضر، فقال[٣]:

«الأحمقُ إن تكلَّم عَجَّل، وإن حُدِّث ذَهَلَ، وإن حُمِلَ على القبيح فَعَل». ولمَّا كان الأحمقُ قاصراً عن تمييز الصواب من الخطأ، فإن مجافاته خيرٌ من مُصافاته لئلا يؤذيَ صاحبه، وهو يزعمُ أنه يُحِسْنُ إليه، قال عبد الملك بن مروان[٤]:

«إيَّاك ومصاحبةَ الأحمق، فإنه ربَّما أرادَ أن ينفعَك، فضرَّك».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٠/ ٢٠١.
(٢) البيان والتبيين ١/ ١٧٢.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ٥/ ١٣٢.
(٤) البيان والتبيين ٢/ ١٠٣.

ومن أحسن ما قيل في الحماقة حكمةٌ جامعة، أجملَ فيها وهب بن منبّه مثالبَ الأحمق العقلية والعملية، حتى زعم أن أمَّه- والأمُّ أحرصُ الناس على حياة ولدها- تتمنَّى موته. قال وهب[١]:

«الأحمقُ إذا تكلَّم فضحه حمقُه، وإذا سكت فضحه عيُّه، وإذا عمل أفسد، وإذا ترك أضاع، لاعلمُه يُعينه، ولا علم غيره ينفعُه، تودُّ أمُّه أنها ثكلته، وامرأتُه لو عدمته، ويتمنَّى جارُه منه الوحدة، ويجد جليسُه منه الوحشة».

١١- السلطان والسياسة

ذهب صدِّيق بن حسن القنّوجي- وكلامُه مقتبسٌ من مقدمة ابن خلدون- إلى أن العلماء والفقهاء والحكماء لا يصلحون للسياسة ولا يفلحون، وعلَّل ما ذهب إليه بأن السياسة فنُّ التعامل مع الواقع، وهؤلاء نظريُّون مثاليُّون، فقال[٢]:

«العلماءُ من بين البشر أبعدُ عن السياسة ومذاهبها، والسببُ في ذلك أنَّهم معتادون النظرَ الفكريَّ والغوصَ على المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن أموراً كلية عامَّة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة، ولا شخص، ولاجيل، ولا أمة ولا صنف من الناس.... والسياسةُ يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال، ويتبعها، فإنها خفية. ولعل أن يكون فيها ما يمنعُ من إلحاقها بشبه أو مثال، وينافي الكليّ الذي يحاول تطبيقه عليها.... فتكون العلماء لأجل ما تعوَّدوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم نوع استدلالاتهم، فيقعون في الغلط كثيراً، ولا يؤمن عليهم».

وفي هذا القول من الخطأ مثل ما فيه من الصواب، وأدلُّ ما يدلك على خطئه أن صاحبه الأول- وهو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون [ت: ٨٠٨هـ] - تولى أكثر من منصب في السياسة والقضاء في أكثر من قطر عربي، وأنه كتب في السياسة والاقتصاد والاجتماع فأبدع وأمتع، وعُدّ من أعظم علماء العرب.

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥٢.

(٢) أبجد العلوم١/ ٢٣٤.

وممَّا يدلُّك على صوابه أن أكثر ما قيل من حِكَم في السلطان والسياسة من صنعة الساسة والقادة لا من صنعة العلماء والأدباء، وأن جلَّة العلماء كانوا يُؤثِرون الابتعادَ عن الحكَّام. قال ميمون بن مهران[١] [ت:١١٧هـ]:

«لا تدخل على السلطان، وإن قلتَ: آمره بطاعة الله».

وإنك لتعجب حينما تقرأ هذه الحكمة ونظائرها، ثم تجد أصحابها من خاصَّة أصحاب السلاطين، فتحارُ كيف تصدِّقُ زَجْرَهم غيرَهم، وهم لا يزدجرون. فميمون هذا كان من عمّال الخراج والقُضاة في خلافة عمر بن عبد العزيز، ومن رجال معاوية بن هشام بن عبد الملك. وخالدُ بن صفوان [ت:١٣٣هـ] جالسَ عمر بن عبد العزيز وهشامَ بن عبد الملك، وبعد أن دالت دولةُ الأمويين صار إلى أبي العباس السفَّاح، وصار حَظِيّاً عنده. ورأى في بعض حِكمه أن الكذبَ والخيانة أسلمُ من الصدق والأمانة لمن يعايشون ويناقشون أولي الأمر. وأنطقه تمرُّسه بالسياسة بحكمة لم تخطر في ذهن مكيافيلي إلَّا بعد بضعة قرون. قال ابن صفوان[٢]:

«مَنْ صحِبَ السلطانَ بالصحبة والنصيحة كانَ أكثر عدوّاً ممَّن صحبَه بالغشِّ والخيانة، لأنَّه يجتمعُ على الناصح عدوُّ الوالي وصديقُه بالعداوة والحسد، فصديقُ الوالي ينافسُه في منزلته، وعدوُّ الوالي يعاديه بنصيحته».

وإذا أخذت برأي ابن خلدون قلت: ربَّما كانت حِكَمُ الساسة في السياسة أحقَّ بالنظر وأوْلى بالالتزام من حكم العلماء لصدورها عن تجارب واقعية. فعبدُ الملك بن مروان، بعد أن ولى ولدَه الوليدَ عهدَه أحكم ولاية العهد بهذه الحكمة الدقيقة:

«اعلَم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملكَ الرعيةَ، أو تملكه الرعيةُ إلّا حزمٌ أو توانٍ»[٣].

ولخَّص معاوية بنُ أبي سفيان تجاربه في السياسة، ومعايشته الحاشيةَ والرعية بحكمة جامعة حذَّر فيها الحاكم من خمسِ رذائل: الكذبِ، والشدةِ،

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٧٥.
(٢) مختصر تاريخ دمشق٧/ ٢٦٣.
(٣) العقد الفريد ١/ ٤٣.

والشحِّ، والجبنِ، والحسد، وبيَّن ما ينجم عن كل رذيلة من هذه الرذائل، فقال[١]:

«لا ينبغي للملك أن يكون كذَّاباً، ولا حديداً، ولا بخيلاً، ولاجباناً، ولا حسوداً: فإنه إن كان كذّاباً، ووعد بخير لم يُرْجَ، أو وعد بشرٍّ لم يخَفْ. وإن كان حديداً مع القدرة هلكت الرعية، وإن كان بخيلاً لم يناصِحهُ أحدٌ، ولا تصلح الولايةُ إلَّا بالمناصحة. وإن كان جباناً اجترأ عليه عدوُّه، وضاعت ثغورُه، فذلَّ.وإن كان حسوداً لم يشرِّف أحداً، ولا يصلح الناسُ إلّا بأشرافهم».

وزبدةُ القول في الحكم السياسية أن تزلُّفَ المتزلِّفين يُفسد ألسنتهم وقلوبهم، فينسيهم التزلُّفُ التعفُّفَ، ويُجْري الانتهازُ ألسنتَهم بالنفاق. أمَّا السلاطينُ أنفسُهم فقوَّتُهم تَرْبَأُ بهم عن الرياء، وثراؤُهم يُطأطئُ بين أيديهم رؤوس المتملِّقين من العلماء، فيكتفون بما تجري به الألسنة، ولا يسألون عمَّا يدورُ في الصدرو، إنهم يُرهبون العامَّة بالقوة، ويُرغبون الخاصَّة في الثروة، فيستقرُّ لهم الأمرُ. قال عبد الملك بن مروان لبنيه[٢]:

«كلكم يترشَّحُ لهذا الأمر. ولا يصلحُ له منكم إلَّا مَنْ كان له سيف مسلول، ومالٌ مبذول، وعدل تطمئنُّ إليه القلوب».

١٢- الكلام

ما أَوْلتْ أمةٌ من الأمم الكلامَ من العناية مثلَ ما أولاه العرب، حتى إنك لتقولُ غيرَ متردِّد: إن البيان كان فنَّهم الوحيدَ، به يرسمون بلا ريشة، وينحتون بلا إزميل، ويمثِّلون بلا مسرح، ويعزفون بلا أوتار. وللكشف عن سرِّ هذه العناية سَمَّى الجاحظ أشهرَ كتبه: «البيان والتبيين». وبدأه بالدعاء التالي:

«اللَّهم إنَّا نعوذُ بك من فتنة القولِ، كما نعوذُ بك من فتنة العمل، ونعوذُ بك من السلاطة والهَذَر، كما نعوذ بك من العِيِّ والحَصَر... وليس - حفظَكَ اللهُ - مَضَرَّة سلاطةِ اللسان عند المنازعة، وسَقَطات الخَطَل يوم إطالة الخطبة بأعظمَ ممَّا يحدُث عن العيّ من اختلال الحجَّة، وعن الحَصَر من فَوْتِ درْك الحاجة».

(١) غرر الخصائص الواضحة/ ٢٠.

(٢) العقد الفريد ١/ ٢٤.

وقبل الجاحظ كان بلغاء العصر الأموي وحكماؤه قد جعلوا همَّهم الأول تهذيبَ اللسان، إذْ وجدوا أن هذه المضغة الحمراء، على ضؤولتها، أخطرُ الجوارح على صاحبها حينما تلوك الكلامَ على الفطرة والسجيَّة كما تلوك الطعام، فقيَّدوا حركتها بقيود وضوابط، وأداروا القول فيها حول خمسة محاور:

أوَّلُها أن قيمة الإنسان تقدَّرُ بأصغريه قلبه ولسانه، ولَمَّا كان اللسان هو الشكلَ الجليَّ للقلب الخفيّ، فقد جعلوه أهمَّ الأصغرين، وأَوْلاهما بالتقدير أو التحقير. قال خالدُ بن صفوان[١]:

«ما الإنسانُ لولا اللسانُ إلا صورةً ممثَّلة، أو بهيمة مهملة».

وثانيها أن مصرع المرء بين فكَّيه، فعلى منْ يضع السنان في رمح اللسان ليطاعن به الناسَ أن يتوقّى، وأن يتوقَّع ارتداد سنانه إلى صدره بطعنة مهلكة. قال المهلَّب بن أبي صفرة[٢]:

«اتقوا زلَّة اللسان، فإن الرجل تزلُّ قدمُه فينتعش، ويزلُّ لسانه، فيهلك».

ولا يتوقى المتكلِّم الخطرَ حتى يتجنَّب الاسترسال، فلا يطلق لسانه بلا زمام يشكمه، لئلا يجمح به جمحة تُرْديه. قال إبراهيم بن يزيد النخعي [ت:٩٦هـ] - وكان من أكابر التابعين الفقهاء في العراق[٣]:

«إنما يهلكُ الناسُ في فضول الكلام وفضول المال».

وقال عمرو بن العاص- وهو مَنْ هو في الدهاء-[٤]:

«الكلامُ كالدواء، إن أقللت منه نفَعَ، وإن أكثرت منه قتَلَ».

وثاني المحاور يقود إلى ثالث، هو إيثارُ الإيجاز على الإطناب، وتقييدُ القول بالعمل. فمن كثر قولُه، وقلَّ فعلُه لم يحصد له لسانه غيرَ أشواك الذنوب. قال عمر بن عبد العزيز[٥]:

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٧٠ وغرر الخصائص الواضحة/ ١٤٢.
(٢) مختصر تاريخ دمشق٢٦/ ٤٥.
(٣) البيان والتبيين ١/ ١٩٢.
(٤) الإعجاز والإيجاز/ ٦٥.
(٥) البداية والنهاية ٩/ ٢٠١.

obeikandl.com

«مَنْ لم يَعُدَّ كلامه من عمله كثرتْ خطاياه» وقال أيضاً: «من علم أن كلامه من عمله قلَّ كلامُه إلَّا فيما يعنيه وينفعُه».

وقال مُطرِّف بن عبد الله الشخير [ت:٨٦هـ]- وكان من كبار التابعين[١] -: «مَنْ صفا عمله، صفا لسانه، ومن خَلَط خُلِط له».

ورابع المحاور أن يتجنب العقلاء محاورة السفهاء، لأن محاورتهم مهاترة، وكلامهم بذاء. قال علي زين العابدين[٢]:

«سلاح اللئام قبح الكلام».

والخامس أن في الصمت بياناً يعدل بيان القول في بعض المواقف، وربَّما كان الصمت عوناً للمتكلم على الإجادة، إذْ يدير القول في ذهنه ويصفيه من كدره قبل أن يطلقه على عجره وبجره. ذهب سليمان بن عبد الملك إلى أن السكوت قبل التكلم كالنوم قبل اليقظة، كلاهما يعين صاحبه ويريحه، فقال[٣]:

«الصمت منام العقل، والنطق يقظته، ولا يتم هذا إلا بهذا».

١٣- تعريفات المناقب والمآثر

أُثرت عن حكماء العصر الأمويِّ أقوالٌ موجزة غايةَ الإيجاز، كأنها شذراتُ التبر، أو ومضاتُ البرق، تلتمعُ في أذهانهم، فإذا هي حُدود للمناقب، وتعريفاتٌ للمآثر، يتناقلُها عنهم الناسُ، كما يتناقلون سوائر الأمثال، وجوامعَ الكلم، وإليك طائفةً منها:

قال ابن القرِّيَّة[٤]: «الصبرُ كَظْم ما يَغيظُك، واحتمالُ ما ينوبك».

وقال أيضاً[٥]: «الدهاء تجرُّع الغصة، وتوقّع الفرصة».

وقال عبد الله بن عباس[٦]: «المروءة ترك اللذة، وعصيان الهوى».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق٢٤/ ٣٤٧.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٩١.
(٣) البداية والنهاية ٩/ ١٧٩.
(٤) مختصر تاريخ دمشق ٥/ ١٣١.
(٥) وفيات الأعيان١/ ٢٥٤.
(٦) العقد الفريد ٣/ ٢٨.

وقال أيضاً[١]: «الشباب الصحة، والكرم التقوى، والحسب المال».

وقال طلق بن حبيب العنزي[٢]- وكان من كبار الزهاد العباد والعلماء العاملين على مذهب المرجئة [ت: قبل١٠٠هـ]-: «التقوى العمل بطاعة الله، على نور من الله، رجاء ثواب الله، وترك معاصي الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله».

وقال معاوية بن أبي سفيان[٣]: «المروءة ترك اللذة وعصيان الهوى».

وسأل معاوية عرابة بن أوس[٤]، فقال له: «بأي شيء سدت قومك؟» فأجابه عرابة [ت: ٦٠هـ] - وكان من سادات المدينة المشهورين، وأعلام الأوس- إجابة تعرِّف السيادة: «أعفو عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حاجاتهم».

وسئل ابن شهاب الزهري [ت: ١٢٤هـ]- وكان من كبار المحدثين الحفاظ- أن يعرف الزهد، فقال[٥]: «والله ما هو من خشونة المطعم، ولا من خشونة الملبس، ولا قشف الشعر، ولا قحل الجلد. ولكنه ظلف النفس عن محبوب الشهوة».

وعرّف وادع بن ذوللة الكلبي الشجاعة، وكان شاعراً فارساً شهد يوم المرج مع مروان بن الحكم، فقال[٦]: «الشجاعة غرائز يجعلها الله في الناس، قد تجد الرجل شجاعاً، لا رأي له، فتلك الشجاعة الضارة لصاحبها، لأنها تقدم به في حال لا إقدامَ، وتحجم به في وقت لا إحجام، فَيَهْلَكُ ويُهْلِكُ. وقد تكون الشجاعة نافعة لصاحبها إذا أقدمت به في حين الإقدام، وأحجمت به في حين الإحجام».

وفي البيان والتبيين، والعقد الفريد وغيرهما من كتب الأدب والتاريخ والرجال تعريفات كثيرة من هذا النمط.

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٠١.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ٢٥/ ٥٨.
(٤) الأغاني ٩/ ١٦٨.
(٥) البصائر والذخائر ٨/ ٣٣
(٦) مختصر تاريخ دمشق ٢٦/ ٢٤٤

١٤- الآفات والفواقر

لو أعدتَ النظر فيما عرَّف به حكماءُ العصر الأمويّ مآثرَ العرب ومناقبَهم لوجدتَ وسطيةَ الإسلام تتراءى لك في شذرات التعريفات، فتكفُّ غلواءَها، وتمنعُ الإفراط والإسراف في التمرُّس بها، فتأتي إلى الاعتدال أقرب منها إلى المبالغة. وهذه الوسطية تتجلَّى بصور أوضح فيما اصطلح عليه العلماء والحكماء من نقد الآفات، والتحذير من الفواقر، إذْ راحوا يقيِّدون ما تواضعوا على تعظيمه من السجايا بضوابط تمنعُ تحوُّل الفضائل إلى رذائل، والمآثر إلى فواقر. ثم جاءت الفلسفةُ مؤيِّدةً لما قيَّدوا وحدَّدوا. جاء في المعجم الفلسفي[١]: «وكلٌّ فضيلة فهي وسطٌ بين رذيلتين: أما الحكمة فهي وسطٌ بين السفه والبله. وأمَّا العفَّة فهي وسط بين الشره وخمود الشهوة، وأمَّا الشجاعة فهي وسط بين التهوّر والجبن، وأمَّا العدالةُ فهي وسط بين الظلم والانظلام».

قال معاوية بنُ أبي سفيان[٢]: «آفة المروءة الكِبْرُ وإخوانُ السوء، وآفةُ الحِلم الذلُّ، وآفةُ الجود السَّرَف وآفة القَصْد البخل، وآفة المنطق الفحش، وآفة الجَلَد الكسلُ، وآفة الرزانة الكِبْرُ، وآفة الصمت العيُّ، وآفة اللُّبِّ العُجْبُ، وآفة الظَّرفْ الصَّلَفُ، وآفة الحياء الضَّعْف».

«وقال الحجَّاج لابن القرِّيَّة[٣]: العربُ تزعم أن لكل شيء آفة. قال: صدقت العرب، أصلح الله الأمير.

قال: فما آفةُ الحلم؟ قال: الغضب.

قال: فما آفة السخاء؟قال: المنُّ عند البلاء.

قال: فما آفة الكرام؟ قال: مجاورةُ اللئام.

قال: فما آفة الشجاعة؟ قال: البغي.

قال: فما آفة العبادة؟ قال: الفترة.

قال: فما آفة الذهن؟ قال: حديثُ النفس.

قال: فما آفة الحديث؟ قال: الكذبُ.

---

(١) ١٤٩/٢.

(٢) المختار من نثر الدرر٢/ ٧٢.

(٣) وفيات الأعيان ١/ ٢٥٣.

قال: فما آفة المال؟ قال: سوءُ التدبير».

تستطيع أن تستنبطَ ممَّا سبق أن «الآفة» أصبحتْ في العصر الأموي كالمصطلح الأدبيّ أو الاجتماعي، ومعناها ما يعرو الفضيلة من انحراف، أو ما يصيبُ المأثرة من خَلَل، تصابُ بها السجايا كما تصاب الجسوم بالعلل.

وأمّا الفواقر فجمعُ فاقرة، والفاقرةُ الداهية الموجعة، كأنها تُحَطِّم فقار الظهر، قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٧٥/ ٢٤-٢٥]. وإلى هذا المعنى ذهب فضَالةُ بن عبيد في بعض حكمه. وكان من الصحابة العبّاد القرَّاء، حمل نعشه معاوية مع من شيَّعه [ت: ٥٣ أو ٥٩هـ]. قال فضالة[١]:

«ثلاثٌ من الفواقر: إمامٌ إن أحسنْتَ، لم يشكر، وإن أسأتَ، لم يغفِرْ. وجارٌ إن رأى حسنة دفنها، وإن رأى سيئة أفشاها. وزوجةٌ إن حضرتَ آذتْك، وإن غبتَ خانتك في نفسك وفي مالك».

ونفر جبير بن نفير من خمس فواقر، يبدو أنها كانت شائعة في زمانه، فقال[٢]:

«خمسُ خصال قبيحة في أصناف من الناس: الحدَّةُ في السلطان، والحرصُ في القرّاء، والفتوَّةُ في الشيوخ، والشحُّ في الأغنياء، وقلَّةُ الحياء في ذوي الأحساب».

١٥- حكم شوارد

تطالعُك في كتب الأدب والتاريخ والرجال طائفةٌ من حكم شوارد، انطوتْ على قيم فرائد، لم ينتظمها سلك. وبشيءٍ من التوفيق والتلفيق، والتسديد والمقاربة تستطيعُ أن تلحقها بعنوان من العنوانات الأربعة عشر السابقة. غير أن هذا الإلحاق لا يبرأ من تكلف. فنشاط العقل الإنساني أكبر وأغزر من أن يُحاط به، وذكاء الحكماء أخصب وأصخب من أن يحبس في أبواب وفصول. وشواردُ الحكم هذه متعدِّدة الأغراض، يتَّصل بعضُها بالحياة والموت، وبعضُها بالخلق والسلوك، وبعضها بالعقيدة والشرع. فيها ما يهوِّن المصاعب والمصائب، وما يحضُّ على الشكر، وما يزهِّد في المدح، ولكلّ منها موضعه من الحياة، ومكانتُه في الأدب، ومكانه من التراث، وأثره في التوجيه، وما نذكره منها

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ١١٦.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٦/ ١١.

لا يغني عمّا نغفله، فأنت في حاجة إليها كلها، لكن في أوقات مختلفة، لا في وقت واحد، وما أنت فيه يحدِّد ما تحتاج إليه.

إذا شددت الرحال للترحال فأصغ إلى قول الأحنف بن قيس[١]: «لا ينبغي للعاقل أن ينزل بلداً، ليس فيه خمس خصال: سلطان قاهر، وقاض عادل، وسوق قائمة، ونهر جار، وطبيب عالمٌ».

وإذا أفاء الله عليك نعمه ظاهرة وباطنة فتذكر قولة هند بنت المهلب بن أبي صفرة ليتم الله نعمته عليك[٢]: «إذا رأيتم النِّعَمَ مستدرّةً، فبادروا بتعجيل الشكر قبل حلول الزوال».

وإذا نزلت بك نائبة فاصطبر لها، لأن نصر بن سيار يبشرك بأن المصيبة الكبيرة تصغر مع مرور الوقت[٣]: «كلُّ شيء يبدأُ صغيراً ثم يكبر إلّا المصيبةَ، فإنها تبدأ كبيرةً، ثم تصغر».

وإذا خوَّلَك الدهرُ سلطاناً، يتيح لك أن تحاسبَ وتعاقبَ، وتحكمَ وتظلمَ، فاحتكمْ إلى حكمة خالد بن صفوان، ثم افعلْ ما تريد[٤]: «أَوْلى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة، وأنقصُ الناس عقلاً مَنْ ظلمَ مَنْ هو دونه».

وإذا ندبك من لا يعرف قدرتك لعمل لا تحسنه، فلا يغرنك حسن الظن فيك، واستفت محمد بنَ كعب القرظي القائل[٥]: «لا يغلبنَّ جهلُ القوم بك معرفتَك بنفسك».

وإذا أنستك تكاليفُ الحياة الموتَ، وأوهمك سرابُ الأمل تراخي الأجل فتذكر حكمتي الحسن البصري[٦]: «يا بنَ آدمَ، إنما أنت أيامٌ، كلَّمَا ذهب يومٌ ذهب بعضُك».

«ما رأيت يقيناً أشبهَ بالشكِّ من يقين الناس بالموت وغفلتهم عنه».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق١١/ ١٤٧.
(٢) المصدر السابق ٢٧/ ١٩٥.
(٣) الإعجاز والإيجاز/ ٧٦.
(٤) مختصر تاريخ دمشق ٧/ ٣٦٤.
(٥) ألف باء ١/ ٣٧.
(٦) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٨٥.

وإذا أردت أن تتزود من شوارد الحكم، وفرائد الكِلم زاداً، تدَّخره إذا أخصبت، وتنتجعه إذا أجدبت، فاملأ بصرك وبصيرتك من شذرات بوارق، ينفحُك بها وهب بن منبه، كأنها- على تنافرها- عقد نظيم، تآلفتْ حبَّاتُه في أسلوب الصياغة وتخالفت في المعاني. قال وهب[1]:

«منْ يرحم يُرْحم، ومن يصمت يسلم، ومن يجهل يُغْلَب، ومن يَعْجَل يُخطئ، ومن يحرص على الشَّرِّ لا يسلم، ومن لا يدع المِراء يُشتم، ومن لا يكره الشتم يأثم، ومن يكره الشرَّ يُعْصَم، ومن يتبع وصية الله يُحْفظ، ومن يحذر الله يأمن، ومن يتولَّ الله يمتع، ومن لا يسألِ الله يفتقر، ومن لا يكنْ مع الله يُخْذَل، ومنْ يستعن بالله يظفر».

والخيطُ الجامعُ بين هذه الحكم المتناثرة صدورُها عن الأناة في الحياة، والإيمانِ بالله، وتغليبِ العقل على العاطفة.

د- من سمات الحكم

نغلو إذا زعمنا أنَّنا قادرون على أن نخصَّ الحكم بسمات لم نقع على أخواتها في الخطب والرسائل والتوقيعات والمواعظ والرقائق. فهذه الأجناسُ الأدبية المنثورة بناتُ عصرٍ واحد، وفكر واحد، وتقاليد فنية متشابهة، تواضع عليها الخطباءُ والمترسِّلون والوعَّاظ والحكماء. وتفرُّدُ بعضِها من بعض أقلُّ أو أندرُ من التفرُّد في قسمات الوجوه. وفي ألوان العيون، ونبرات الأصوات بين الأشقاء والتوائم.

ومع صعوبة الوقوع على فروق بين الأشباه والنظائر، فإن رغبتنا في التخليص والتخصيص تحملُنا على أن نحاول محاولةً قد نخفق فيها كلَّ الإخفاق، وقد نُصيب فيها بعضَ النجاح، وهي أن نخلِّص الحكم ممَّا يخالطها من سمات الأجناس الأخرى، ونخصَّها بملامحَ قد تستقلُّ بها. فإن أخفقنا فإخفاقنا ينجم عمَّا بين الأجناس الأدبية النثرية من اشتباك واتحاد. وإن أَصَبْنا شيئاً ممَّا رجونا فالفضلُ يعود على ما تفرَّدت به الحكم من قيم فكرية، وسَمَت صياغتها الفنيةَ بما يميزها. فما أبرز سماتها الفكرية والفنية؟

(١) مختصر تاريخ دمشق٢٦/ ٣٩٥.

١- انبثاقها من الفكر الإسلامي

إذا أعدت النظر في حكم العصر الجاهلي وجدت أكثرها بنات التجارب، وأقلَّها ثمرات القرائح. فإذا انتقلت إلى العصر الإسلامي انعكس طرفا المعادلة، فطَغَت الحكمُ الفكرية المستوحاة من الثقافة الإسلامية على الحكم الواقعية المستنبطة من الحياة المعيشة. وعلَّةُ ذلك أن الإسلام صاغ الفكر العربي صياغة جديدة، بناها على أسس راسخة، أهمُّها التوحيد في العقيدة، والاعتدالُ في السلوك، والوسطيَّةُ بين المثالية والمادية، وموازنة الغرائز الجسدية بالسموّ الروحي، وربط الدنيا بالآخرة.

وعن هذه الأسس نجمت الكثرة الكاثرة من حكم العصر الأموي، إذ تضمنت المفاهيم والقيم المستوحاة من الكتاب والسنة باللفظ والمعنى حيناً وبالمعنى وحده في أكثر الأحيان. فإذا قرأت قول عمر بن عبد العزيز[١]: «الصبر معقل الإيمان» طارت بك الذاكرة إلى الآيات التي تربط الصبر بالإيمان، ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٠٠]. وإذا قرأت قولَ الغضبان بن القبعثرى في النساء[٢]: «هُنَّ بمنزلة الأضلاع، إن سويتها انكسرتْ، وإن تركتها انتفعت بها»، أومض في ذهنك قولُ النبي ﷺ: «إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت، استمتعت بها وفيها عِوَج. وإن ذهبتَ تقيمُها كسرتَها، وكَسْرُها طلاقها»[٣].

٢- صياغة الحكم من النقائض

يسلك العقلُ إلى ابتكار الأفكار مسالكَ عديدة، منها الانتقالُ من المعنى إلى نقيضه على طريقة التداعي، فإذا سمعت لفظة «الصدق» قرنها دماغُك بالكذب، وإذا ذُكر أمامك «الجِدُّ» خطر لك اللعب، وعلى هذا النحو تتعرَّف الأشياء بأضدادها كما تتعرف بنظائرها.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٣١.
(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢٠/ ٢٠١.
(٣) رياض الصالحين/ ١٢٣ في رواية مسلم.

وقد سلك هذا المسلك كثيرٌ من حكماء العصر الأموي فيما صاغوا من حكم، إذْ راحوا يرغبون في الفضائل بالترهيب من الرذائل، ويقرنون المَنْقَبة بالمثلبة ليشرِّفوا الأولى بتحقير الثانية، فالمهلّبُ بن أبي صفرة، عظم التمهُّل بذمّ التعجُّل فقال[١]: «أناةٌ في عواقبها دَرْكٌ خيرٌ من عجلة في عواقبها فَوتٌ».

وذهب عبدُ الله بن عباس إلى أن في البشر توازناً بين الخير والشر، وقلَّما يستأثر الناس بالخير المحض أو بالشر الخالص، فقال[٢]: «ما مِن قوم فيهم غرة، إلَّا وإلى جانبها عُرَّة».

والإمامُ زيد بن عليّ صبَّ مجموعة من الحكم الأخلاقية والاجتماعية والدينية في معادلات متقابلات من الأضداد، منها[٣]: «اطلبْ ما يعنيك، ودَعْ ما لا يعنيك، فإن في ترك ما لا يعنيك دركاً لما يعنيك. وإنما تُقْدِمُ على ما قدمت، ولست قادماً على ما أخَّرت، فآثِرْ ما تلقاه غداً على ما لا تراه أبداً».

٣- الميل إلى التقسيم

إلى جانب المقارنة بين النقائض تجدُ في حكم كثيرة نزوعاً إلى التقسيم، ومَيْلاً إلى تصنيف البشر والأخلاق والفضائل والعيوب وفق أسس مادية أو فكرية، تصيب حيناً، وتخطئ حيناً، فإذا نظرتَ إليها بعين التحقيق وجدتها نسبية الصحة، لا مطّردة الأحكام، أو ثمرات تجارب شخصية لا بنات حقائق مطلقة.

فمحمدُ بن الحنفية قَرَن الغباء بالثراء، والعلمَ بالإملاق، لعلَّه أراد أن يُسرِّيَ عن فقراء العلماء، فقال[٤]: «وكل الله الجهلَ بالغنى، والعقلَ بالحرمان، ليعتبر العاقلُ، وليعلم أنْ ليس له من الأمر شيء».

والحسنُ البصريُّ ذهبَ المذهبَ نفسه في التصنيف، فزعم أن البشر ثلاثة أصناف: أقوياء، وأغنياء، وفصحاء، كأن الله أرضى كل صنف بنعمة من ثلاث نعم لئلا يتحاسدوا، فقال[٥]: «الرجال ثلاثة: رجلٌ بنفسه، وآخرُ بلسانه، وآخر بماله».

---

(١) غرر الخصائص الواضحة/ ٣٤٩.
(٢) البصائر والذخائر ٨/ ٣٠.
(٣) المختار من نثر الدرر ١/ ١٥٢.
(٤) غرر الخصائص الواضحة/ ١٣٥.
(٥) المختار من نثر الدرر ٣/ ٢٥٩.

والتقسيمُ يُفضي بعضه إلى بعض، فإذا قسَّم الحكيم الناس بين عالم وجاهل،وسعيد وشقي، وبرٍّ وفاجر عمد إلى واحد من هذه الأقسام فقلَّبه على أحواله، ونجم عن التقليب تقسيم، كأن يصف ابن القرِّيَّة الفاجر وصفاً موزَّعاً على أصغريْه قلبهِ ولسانهِ، فإذا هو خائنُ القلب، جارحُ اللسان: «الفاجر إن ائتمنته خانك، وإن حادثته شانك»[١].

وعبد الله بن الزبير قسّم رؤية الإنسان بين النظر بالبصر، والتدبُّر بالبصيرة، وآثر الثاني على الأوَّل، فقال[٢]: «لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه».

٤- تكثيف المعاني في المباني

إذا قرنْتَ الحكمةَ بأخواتها؛ القصةِ، والموعظةِ، والرقيقةِ استطعت أن تميزها منهن بسمة، تكادُ تتفرَّدُ بها، وهي الإيجازُ الشديد، وقدرتُها على أن تستوعبَ ببضع كلمات ما تستوعبُ القصة ببضع صفحات، والموعظة ببضع فقرات، والرقيقة ببضع عبارات. وهذا شأنُ المعادن النفيسة من ماس وذهب، فهذه المعادنُ ثقيلةُ الأوزان، جليلةُ الأثمان، ومثلُها الحكمة تملأُ الفكر بالمعاني المكثَّفة، إذْ تعمرُ الذاكرة بعبارات صغيرة اللفظ، يسيرة الحفظ.

قال عبدُ الله بن عباس[٣]: «الدنيا عافية». وقال معاوية بن أبي سفيان[٤]: «آفة العلم النسيان». وقال أبو حازم الأعرج[٥]: «السلطانُ سوق، فما نفق عنده أُتِيَ به» وقال أيضاً[٦]: «مَنْ أُعجب برأيه ضلَّ». وقال لاحق بن حميد[٧]: «التثبُّتُ نصفُ العفو». ومن كلام المهلَّب بن أبي صفرة[٨]: «ما شيءٌ أبقى للمُلْك من العفو».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق٥/ ١٣٢.
(٢) عيون الأخبار١/ ٣٤.
(٣) العقد الفريد٣/ ٢٨.
(٤) المختار من نثر الدرر ٢/ ٢٧.
(٥) عيون الأخبار١/ ٢.
(٦) مختصر تاريخ دمشق ١٠/ ٧٤.
(٧) البيان والتبيين ٢/ ٤٣.
(٨) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٨٥.

٥- تصوير المعاني المجرّدة

لَمّا كان القسم الأكبر من معاني الحكم يدور حول أفكار ذهنية، وشمائل نفسية، أدارها أربابها حول العلم والجهل، والذكاء والغباء، والأمانة والخيانة، والصدق والكذب، والجدّ واللعب، والتواضع والتكبر، فإنهم حرصوا على أن ينقلوا هذه المجردات من التصوّر الذهني إلى التصوير الحسّي، فرسموها في صور تقرب البعيد، وتوضح الغامض، وتضخم الصغير، وتملأ السمع والبصر بما يتخلج في العقل والقلب.

رسم عبد الحميد للعلم شجرة مثمرة فقال[١]: «العلم شجرة ثمرها الألفاظ»، وجعل العقل كالبحر الزاخر بالدر، فقال: «الفكر بحرٌ لؤلؤه الحكمة»[٢]. وصوّر أبو حازم الأذهان، فجعلها أزهاراً يأتيها التفكّر باللقاح فتنعقد ثمارها[٣]: «النظر في العواقب تلقيح العقول».

وربَّما قرنوا المحسوسَ الإنسيّ بالمحسوس الوحشيّ ليجعلوا الحكمة أعمقَ تأثيراً في النفس، وأشدَّ هيمنة على العقل. قال عبدُ الله بن عبّاس في التحذير من القريب الحاسد: «ما ذئبٌ أغبسُ جائعٌ بألحَّ على فريسته، ولا أنهكَ لها من ابن عمٍّ دنيٍّ على ابن عمٍّ سريّ»[٤].

٦- الأسلوب الخطابي

إن حرص الحكماء على إنفاذ حكمهم في العقول والقلوب كان يحملهم أحياناً على الاستعانة بالأسلوب الخطابي. والأسلوبُ الخطابي يؤثر الإنشاءَ على الخبر، فيغدو أقدرَ على الإثارة، وأفعلَ في النفوس، وأحفلَ بالمشاعر، وأكلفَ بالتوقيع. وبهذا الأسلوب تلتقي طائفة من الحكم بالخطب، فتحمل أصحابها من محاريب التأمُّل إلى منابر الخطباء، فإذا هم يأمرون ويزجرون، ويخاطبون ويؤدّبون بلهجة غاضبة، وتحذير مهدِّد.

---

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب/ ١٩٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ١٠/ ٧٥.
(٤) البصائر والذخائر ٨/ ٣٠.

قال معاوية بن أبي سفيان[١]: «إيَّاكم والسلطانَ، فإنه يغضبُ غضب الصبيان، ويعاقب عقابَ الأسد».

وقال وهب بن منبه[٢]: «إياكم وهوى متَّبعاً».

وقال خالد بن صفوان[٣]: «لا تطلبوا الحوائج في غير حينها، ولاتطلبوها إلى غير أهلها، ولا تطلبوا ما لستم له بأهل، فتكونوا للمنع أهلاً».

وقال بلالُ بن سعد[٤]: «لا تنظرْ إلى صِغَرِ الخطيئة، ولكن انظرْ منْ عَصَيْت».

٧- الكَلَفُ بالتوقيع

للصياغة الموقَّعة في النثر الفني عامَّةً، وفي الحِكَمَ خاصَّة فوائدُ، غفل عنها المحدثون الذين جعلوا همَّهم وسَدَمهم الزرايةَ بالسجع والجناس، وأدركها الأقدمون، ومنهم البلغاءُ في العصر الأموي، فصبُّوا أكثر حكمهم في جمل متناغمة الإيقاع، فشفع الإيقاعُ الإقناعَ بالإمتاع، ورسخ المعاني في الأذهان، وأطالَ عمر الحفظ، وجعل تداولَ الحِكم الموقَّعة أوسعَ وأشيع، وأدقَّ وأيسرَ من تداول الحكم ذوات الأسلوب المرسل.

ومن أهمِّ عناصر التوقيع الازدواجُ والتسجيعُ: الأولُ يصنع جملاً ذواتِ نغماتٍ متساويات، فَيُطرب بإيقاع كلّي، والثاني يختمها خاتمةً موحَّدة الرويِّ، فيُطرب بإيقاع جزئي.

قال الغضبان بن القبعثرى[٥]: «العاقل لا يتكلَّمُ هذْراً، ولا ينظر شزْراً، ولا يُضمر غدراً».

وقال وهب بن منبه في إطراءِ المؤمن[٦]: «ينظر ليعلم، ويتكلَّم ليفهم، ويسكتُ ليسلم، ويخلو ليغنم».

---

(١) المصدر السابق ٢٥/ ٥٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٩.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ٧/ ٣٦٥.
(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ٩١.
(٥) مختصر تاريخ دمشق ٢٠/ ٢٠١.
(٦) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٩.